﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ٤٠﴾ [الفرقان: 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العذابُ الإلهيُّ يتجلَّى في الماءِ وغيرِه، تذكيرٌ بقُدْرةِ اللهِ وعَظَمتِه

لمّا كان سَوقُ خبرِ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وأصحابِ الرّسّ وما بينَهما منَ القرون مقصودًا لاعتبار قريشٍ بمصائرِهم، نقل نظمُ الكلام هنا إلى إضاعتهم الاعتبارَ بذلك، وبما هو أظهَرُ منه لأنظارِهم، وهو آثارُ العذابِ الَّذي نزل بقريةِ قومِ لوط[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ﴾: (قرى) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على جمعٍ واجتماع، ومنه القرية، وهي معروفة، وسُمّيت بذلك لاجتماع النّاس فيها[2]، ويجوز أن تكون القرية على عدّة معانٍ؛ الأوّل: على مكانِ اجتماع النّاس؛ والثّاني: على النّاس المجتمِعين في مكانٍ واحدٍ؛ والثّالث: على الاثنين معًا المكانِ والنّاس[3]، ويجوز في القرية أن تُطلَق على البلْدة الصّغيرة، وعلى المدينة الكبيرة، وتُطلَق أيضًا على المِصْر الجامِع، والجمعُ: قُرَى[4]، ومعنى ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ في الآية: هي القريةُ الَّتي كانت مَسْكنًا ومُجتَمعًا لقوم لوطٍ الَّذين عُذّبوا بالحجارة رميًا[5].

2) ﴿أُمۡطِرَتۡ﴾: (مطر) أصلٌ صحيح بمعنى الغَيث الَّذي ينزل منَ السّماء، والمطرُ ما انسكب منَ الماء منَ السّحاب، والمطرُ واحدُ الأمطار، ومطَرَتِ السّماءُ، وأمطرها الحقّ سبحانه، ويجوز أن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 29.
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رقي)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قري).
(3) الرّاغب، المُفرَدات: (قرى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرى).
(5) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 322.

يُستعمَل لنُزول العذاب، ونقيضُه الرّحمة، ويُقال: إنّ (مطرَ) في الخير، و(أمطرَ) في العذاب، والوارد في الكتاب الكريم هو مطرُ السّحاب، وما جاء منه دالًّا على العذابِ فمن باب التّشبيه في التّصوُّب من الأعلى[1]، ومعنى ﴿أُمۡطِرَتۡ﴾ في الآية؛ أي: نَزَلتْ عليها حجارةٌ من سجّيل منَ السّماء؛ عذابًا وإهلاكًا[2].

3) ﴿ٱلسَّوۡءِ﴾: (سوء) تدلُّ على القُبح، "والسّوء وصفٌ لكلّ شيءٍ رديء؛ وهو اسمٌ جامعٌ للآفات والأدواء[3]، والرّجلُ السَّيِّئ بمعنى: القبيح، وكذا المرأة، وسُمّيت السَّيّئةُ سَيّئةً لقُبْحها، وسُمّيت النّار سَوأى؛ لقُبْح منظرِها، والمعنى العامُّ للسّوء: ما يحصُل للإنسان منَ الغَمّ والهَمّ من أمور الدّنيا والآخرة، وما يَعرِض له منَ الأمور النّفسيّة؛ كفقدِ المال والجاه وغيره، وكلّ فعلةٍ قبيحة فهي سيّئةٌ من السّوء[4]، ومعنى ﴿ٱلسَّوۡءِ﴾ في الآية: إشارةٌ إلى الحجارة الَّتي رُموا بها[5]؛ فأهلكتهم لِما ارتكبوا منَ الفاحشة الَّتي عُرِفوا بها.

4) ﴿نُشُورٗا﴾: (نشر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على فتحِ شيءٍ وتَشعُّبِه[6]، والنّشر بمعنى البَسْط، يُقال: نشرتُ الثّوبَ والكتابَ: بسطتَهما، والنّشور الحياة بعد الفَناء والموت، فنَشْرُ الميت هي حياتُه بعد الموت، وهو مُستعار من نشر الثّوب، ونَشَرتِ الأرضُ: إذا أنبتتْ وأصابَها الرّبيعُ، وأنشر اللّهُ الموتى فنشروا؛ أيْ: قاموا أحياءً؛ تشبيهًا بحال الأرض الَّتي أصابَها الرّبيع فأنبتت بعد جفافٍ، والمعنى المحوريّ للنّشر يدلّ على التّفرّق والامتداد، أمّا نشرُ الميّت فهو من المَجاز[7]، ومعنى النّشور في الآية: البعثُ وإحياءُ الموتى، فقد كان هؤلاء قومًا مُنكِرين للآخرة، لا يُؤمنون بالبعث، ولا يريدون أن يُؤمنوا به، ولا يَرجون ثوابَه[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِر الحقُّ ﷻ عن قريشٍ، وعن مسارِ تجارتِهم إلى الشّام، ومُرورِهم كثيرًا بآثار

(1) الرّاغب، المُفرَدات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مطر).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 112.
(3) الخليل، العين: (سوأ)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوء).
(4) الرّاغب، المُفرَدات: (سوأ)، والسَّمين، عُمدةُ الحُفّاظ: (سوا).
(5) العليميّ، فتح الرّحمن: 5/ 26.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 5/ 430.
(7) الرّاغب، المُفرَدات، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (نشر).
(8) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 102.

قَسوةُ القلوبِ تُعْمي عنِ الاعتبارِ بمصيرِ الهالكين

قوم لوطٍ، وقريتِهم الَّتي أُمطِرَتْ عليها الحجارةُ؛ يعني: سَدوم، عُظمى قُرى قوم لوطٍ الَّذين عذّبهم اللّٰهُ تعالى؛ فجعل عاليَها سافِلَها، وأمطرَ عليهم حجارةً من سِجّيل، أَفَلَم يَكونوا يَرَوْنَها في مِرارِ مُرورِهم فيتَّعِظوا بما يَرون فيها من آثارِ عذابِ اللّٰه؟ بل كانوا كفَرَة لا يتوقَّعون نشورًا ولا عاقبةً، فلذلك لم ينظروا ولم يتَّعِظوا، فمَرُّوا بها كما مَرَّت رِكابُهم، أو أنّهم كانوا لا يأْمُلون نُشورًا كما يأْمُلُه المؤمنون طَمَعًا في الثّوابِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ في صَدرِ الآيةِ:

مَـرّوا على آثـارِ الأُمَـمِ الهالِكة فلم يَعتبروا

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾ لإفادةِ الاستِئنافِ[2]؛ فالجملة مُستأنَفَةٌ ومَسوقةٌ لبيان مُرورِ المُشركين، ومُشاهدتِهم لآثار هلاكِ بعض الأُمم المُتبَّرة، كقُرى قوم لوطٍ، ولسانُ الحالِ ناطقٌ بأنّكم مررتُم بهذه القرية، ورأيتُم آثارَ هلاكِ قوم لوطٍ، فكيف لا تتَّعِظون؟![3]، وقد ساق النّظمُ الكريمُ أخبارَ القوم المُهْلَكين؛ قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ وأصحابِ الرَّسِّ، والقرونِ الَّتي بينَها؛ بقَصْد الاعتبار بمصائرِ تلك الأقوام، وغايرَ هنا في الكلام؛ ليُظْهِرَ إضاعةَ قريشٍ الاعتبارَ بهذه الأخبار، وبما هو أظهَرُ منه لأنظارِهم، وهو آثارُ العذابِ الَّذي نزَل بقريةِ قومِ لوطٍ[4].

معنى اللّامِ و(قد)، وسِرُّ تصديرِ الكلامِ بهما مُقترِنَيْن:

تـعـجـيـبٌ من حالِهم في عدمِ اعتبارِهم بآثارِ الأُمَمِ المُهْلَكةِ

صُدِّر قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْاْ﴾ باللّام الموطِّئة للقَسَم و(قد) الَّتي تُفيد التّحقيق والتّوكيد[5]؛ أيْ: إنّ ما بعدَها مُحَقَّقٌ لا شَكّ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 125.
(2) بهجت صالح، الإعراب المُفصَّل: 8/ 127.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 219.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 29.
(5) مجموعة مُؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1592.

فيه، وفي القَسَم والتّحقيق تحذيرٌ من عاقبة الكُفر والظُّلم، وإثارةٌ للخوف والرَّهبة في قلوب الكافرين، فاللّامُ و(قد) بعد الواو مُؤذِنةٌ بعظيم الاهتمام، ومزيدٍ منَ التّوكيد، توكيدِ عِظَم شأنِ قِصّةِ قومِ لوطٍ، وكيف أنّ المُخاطَبين لم ينتفعوا بآياتِ الله تعالى، كما لم ينتفعِ المُنكِرون بالمَحسوسات[1]، وذلك يدلّ على أنّهم كانوا قُساةَ قلوبٍ، مُنكرينَ للحَقِ، مُعْرِضين عن آياته تعالى.

وقد يُفيد التّعجيبُ من حالهم في أنّهم لم يَعتبروا ممّا جرى لقوم لوط، وهُم يرَون آثارَ العذابِ شاخصةً أمامَهم في أسفارِهم وتجارتِهم إلى الشّام، فإنّهم يَمُرّون بديار قوم لوطٍ مُحاذين لبُحيرة لوطٍ الّتي تقع بقايا قريةِ سَدوم على حافاتِها، وقد غَمَر الماءُ معظمَها[2]؛ فهذه دلائلُ وعلاماتٌ على مآلِ الأُمم الّتي أهلكها الله، ولم تَنَلْ منِ اعتبار المشركين إلّا عِنادًا ومُكابَرة.

فائدةُ توالي المؤكِّداتِ:

مـــرورٌ مُـؤكَّـدٌ مُـحـقَّـقٌ، دالٌّ على قوّةِ الإنكارِ، وعدمِ الاعتبارِ

توالَتِ الألفاظُ الدّالّةُ على التّوكيدِ والتّحقيقِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْاْ﴾، وهي اللّام و(قد) والفعل الماضي ﴿أَتَوْاْ﴾، وفائدةُ التّوكيد: ثبوتُ مرورِ هؤلاءِ على القريةِ المَذكورةِ ثبوتًا لا خِلاف فيه، وتوظيفُ هذا الثّبوتِ للدّلالة على قوّةِ الإنكارِ في الاستفهامِ الواردِ فيما بعدُ بقولِه: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَاۚ﴾[3]، بأنّهم وإن كانوا يرَون آثارَها الدّالّةَ على عذاب الله، لكنّهم لم ينتفعوا بهذه الرّؤية في العِظَةِ والاعتبارِ.

دلالةُ تعديَةِ فعلِ ﴿أَتَوْاْ﴾ بـ ﴿عَلَىٰ﴾، وإيثارُ الفعلِ الماضي:

العِظةُ والاعتبارُ بما آلَ إليه حالُ القريةِ المُدَمَّرةِ

يَرِدُ فعلُ الإتيانِ لازمًا بمعنى المَجيء، ويُستعمَل مُتعدّيًا بنفسه، فإذا تعدّى بـ(على)؛ كان بمعنى المُرورِ[4]؛ وهو الوارد في قولِه تعالى:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 389.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 29 - 30.
(3) المَطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 56 - 57.
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (أتي).

﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ﴾؛ فجَعَل فعلَ الإتيان مُتضمِّنًا معنى فعلِ المرورِ؛ فعدّاه بالحرفِ ﴿عَلَى﴾؛ فالإتيانُ مُتعدٍّ إلى اسم القرية، والقصدُ منَ المُرور العِظةُ والاعتبار بما آلَ إليه حالُ أهلِها منَ العذاب[1]، وقد أورِدَ فعلُ الإتيان الدّالّ على المرور ماضيًا بقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ﴾؛ للإيذان بأنّ حصولَ المرور مَرّةً واحدةً كافٍ في العِبرة والتّفكُّر والمَوعظةِ[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ وفائدةُ مجيئِها مُفرَدَةً:

خمسُ قُرًى لا قريةٌ واحدةٌ، عاقبةٌ مُزلزِلةٌ للكافرين

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ دالّةٌ على الجنسِ، فإنّها لم تكن قريةً واحدةً كما هو ظاهرُ اللّفظ؛ بل كانت خمسَ قُرًى، وهي قُرَى قومِ لوطٍ الّتي أهلكها الحقُّ سبحانه بالحجارة، فلم تَنْجُ منها إلّا واحدةٌ؛ فقد كان أهلُها لا يعملون العملَ الخبيثَ، وأمّا البواقي فأهلكها اللّهُ تعالى بالحجارة[3].

يجوز أن تكون للتّعريف العهديّ

ويجوز أن تكون (أل) في ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ للتّعريف العهديّ؛ فإنّ القرية المَذكورة في الآية الكريمة هي قرية (سَدوم)، كُبرى قرى قومِ لوط عليه السلام، ومع أنّ القُرى كانت خمسًا أو أكثر من ذلك، إلّا أنّه لمّا كانت أعظمَ تلك القُرى أَفْرَدها، وجعلَ ما وراءَها تبعًا لها[4].

قد يكون غرضُ الإفرادِ تحقيرَ أهلِ القريةِ

وقد يكون الغرضُ منَ الإفراد للقرية أن يخلع عليها صفةَ التّحقير، وأن يُهين مَن حَقّ عليه العذابُ، وأنّ الّذين قاموا بالفاحشة وإن كانوا جمعًا إلّا أنّهم في فجورهم كالشّيء الواحد، يُؤيّدُه اشتقاقُ القريةِ من (قرا) الدّالّ على الجمع[5].

سِرّ تقييدِ القريةِ بـ﴿أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۖ﴾:

اشتهارُها بمَضمون الصِّلة، وهو إمطارُها بالحجارة

وصفَ اللّهُ تعالى القريةَ بأنّها ﴿ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾، وهي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 113، 19/ 30.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 22.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 219.
(4) الرّازيّ، أُنموذجٌ جليلٌ، ص: 394.
(5) البقاعيّ، نَظْمُ الدّرر: 13/ 389.

قرية (سَدوم) أعظمُ قرى قوم لوطٍ؛ لاشتهارِها بمضمونِ الصّلة بين العرب وأهلِ الكتابِ[1]، وهو إمطارها منَ اللّه تعالى بالحجارة، وإبادةُ أهلِها جزاءَ فاحشتِهم الشّنيعة، وهذا الوصف هو كناية عنِ القُرى الّتي أهلكها اللّه تعالى من قُرى قومِ لوطٍ موضعِ العِظَة والعِبرة، وفي الكناية إظهارٌ لمَحطِّ الاعتبار، وهو البلاءُ والعذاب الّذي حلّ على قوم لوطٍ، بأن أمطرَهم الحَقّ ﷻ بالحجارة؛ لمّا أتَوا منَ الفواحش الشّنيعة والأفعالِ القبيحة ما لم يأتِه أحدٌ منَ العالَمين، فتَركُ الكنايةِ والتّعبير بذلك ممّا يُفوِّت مَلْحَظَ العِبرة والإنكارِ والتّوبيخِ في مرور المشركين عليها[2].

دلالةُ التّعبير بـ ﴿أُمۡطِرَتۡ﴾ مادّةً وصيغةً:

نـزلـتِ الـحـجـارةُ عـلـى رؤوسـهـم جزاءَ أفعالِهم

استُعمِل الفعلُ المبنيُّ للمفعول في قوله تعالى: ﴿أُمۡطِرَتۡ﴾[3]؛ لعدم تعلّق الغرضِ بالفاعل، وهو الحقّ ﷻ؛ بل أراد الاهتمامَ بالحدث نفسِه، وهو إمطارُهم بالحجارة جزاءَ أفعالِهم القبيحة[4]، ومُرتكَباتِهم الشّنيعة، وكما يَنزلُ المطرُ على رؤوس النّاس، نزلتِ الحجارةُ على رؤوس قوم لوطٍ، وفي التّعبير بالفعل مبنيًّا للمفعول أيضًا إيذانٌ بأنّ إمطارَها بالحجارة قد وقع منَ الحقّ ﷻ، المُتّصِفِ بالعَظَمة، الّذي لا يقدر على الإمطار بالحجارة إلّا سواه[5].

بلاغةُ التّعبيرِ بالتّشبيهِ في قولِه: ﴿مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾:

عـــذابٌ نـــازلٌ عـلـيـهـم مـنَ الـسّـمـاء على هيئة حجارةٍ من كِبريتٍ ورمادٍ

في حديثِ القرآن عنِ القرية الّتي أهلكَها قال: ﴿ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾، جاء المُراد بـ﴿مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ بمعنى العذاب النّازلِ عليهم منَ السّماء على هيئة حجارة من كِبريت ورماد، فهو ليس مطرًا في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 30.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 57.
(3) مجموعة مؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1592.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 3/ 57.
(5) البقاعيّ، نَظْمُ الدّرر: 13/ 389.

حقيقته، إنّما ورد هنا على طريقة التّشبيه[1]، بجامع النّزول منَ السّماء إلى الأرض، وفي التّشبيه تصويرٌ لشِدّة العذاب، وبيانٌ "لنزولها عليهم منهَمِرةً انهمارًا، فهو ليس مطرًا ولا ماءً مُغيثًا؛ بل مَطرُ حجارةٍ أُريدَ بها أن تحطمَهم، فهو مُؤلمٌ سيِّئٌ في ذاته، وفي عُقباه[2].

سِرُّ إضافةِ المَطَرِ إلى السَّوءِ:

مـطـرٌ لـيـس له صِفةٌ غير السَّوءِ والضَّررِ

أُضيفَ المطرُ إلى صفته، وهو السَّوء في قوله تعالى: ﴿مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾؛ للدّلالة على اختصاصه بها[3]، وشِدّة تعلُّقِه بهذه الصّفة الذّميمة، وأنّ المطر ليس له صفة غير السَّوء والضّرر؛ فقد يتوهَّم مُتوَهِّم أنّه مطرُ غيثٍ نافعٌ، والصّوابُ خِلافُ ذلك، ويجوز أن تكون الإضافةُ من بابِ الاستعارةِ التّهكّميّةِ؛ لأنّها حجارةٌ من سِجّيلٍ[4]؛ فالإنسانُ ينتظرُ حلولَ الخيرِ عليه بنزولِ المطرِ النّافعِ، وإذا به يرَى الحجارةَ منَ السّماءِ تنهمرُ عليه.

نُكْتَةُ فصلِ قولِهِ: ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ﴾:

كـانـوا يـرَون آثارَ الأُمـمِ الـهـالـكةِ مـن غـيرِ اعـتـبارٍ وتذَكُّرٍ

لّمّا كان قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ﴾ استفهامًا إنكاريًّا، فُصِلت الجملةُ عن سابقتِها ولم تُعْطَف، والاستفهامُ يُراد منه الإثباتُ؛ لأنّ إنكارَ النّفي تقريرٌ وإثباتٌ؛ والمعنى: أنّهم كانوا يرَونها، فلماذا لم يتّعظوا ويعتبروا ويذّكّروا[5].

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغرضُه:

سـؤالُ إنـكـارٍ، وإيقاظٌ للعقولِ لـعـدمِ اعـتـبارِها بـآثـارِ الأُمـمِ المُعَذّبةِ

لّمّا أخبر تعالى عن حالِهم في رؤيتهم آثارَ العذابِ، وعدمِ انتفاعِهم به بقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ﴾؛ فرّع عليه استفهامًا صوريًّا عنِ انتفاء رؤيتهم إيّاها بمرورهم عليها، فإنّهم لم يعتبروا بها، فكأنّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 30.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5283.
(3) زادة، حاشيته على تفسير البيضاويّ، ص: 293.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 14/ 101.
(5) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 7/ 28.

سائلًا يسأل: هل رأَوْها؟ فهو استفهامٌ صوريٌّ؛ لتنبيه العقول لمعرفة حالهم، وهو استفهامٌ إمّا للإنكار والتّهديد، أو لإيقاظهم لمعرفة علّة عدم اتّعاظهم[1]، والاستفهام هنا دالٌّ على التّوبيخ للذين لا يَتذكّرون ولا يتّعظون عند مشاهدةِ ما يوجِبُ التّذكُّرَ؛ كآثار الأُمم الهالكة، وفيه تنبيهٌ للنّاسِ على غفلتهم وضلالهم، والتّصديرُ بالهمزة يُفيد نفيَ استمرارِ رؤيتِهم لها، فيؤول المعنى إلى أنّهم كانوا ينظرون إليها، لكنّهم لم يكونوا يرَونها؛ أيْ: لا ينتفعون برؤيتهم تلك، فالإنكار مُتوجِّهٌ إلى نفي استمرار الرّؤية، وإثباتِ ذلك الاستمرار حسَبَ أسفارِهم ومشاهداتهم[2].

معنى الفاء ودلالتُها على المحذوف في ﴿أَفَلَمْ﴾:

عـطـفُ نـفـيِ النّظرِ على مُقدَّرٍ هو نفيُ الرّؤيةِ لحصولِ العِظةِ والاعتبارِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا﴾ عطفَت مدخولَها على مُقدَّرٍ بمُقتضى المَقام، على تقدير: ألم يكونوا ينظرون إليها؛ فلم يكونوا يرونها بتَرْكِ النّظر والرّؤية معًا، أو أكانوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها بعدم الرّؤية مع تحقُّق النّظر على الرّغم من تكرار مرورهم بها؛ لتَحصُلَ لهم العِظةُ والاعتبار بمشاهدتهم آثارَ العذاب الواقع على قوم لوطٍ[3].

نُكْتَةُ دخولِ فعلِ الكونِ، وصيغةُ المضارعِ فيه:

جُبِلوا على عدمِ الرؤيةِ الموصِلةِ إلى الاعتبارِ والعِظةِ

دخولُ فعلِ الكون في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُواْ﴾ بصيغة المضارع؛ يدلُّ على جِبِلّاتهم وطباعِهم[4] في عدمِ الرّؤيةِ الموصِلةِ إلى الاعتبارِ والعِظةِ، فضلًا عن دوامِهم على جِبِلَّتهم تلك؛ فإنّ (كان) مع الفعل المضارع لإفادة سِمَةِ الاستمرارِ والتّجدُّد[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 30.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 55 - 56.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 219.
(4) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 13/ 390.
(5) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 101.

فائدةُ التّعبيرِ بفعلِ الرّؤيةِ مُضارِعًا:

تـجـدّدُ رؤيـةِ قـريـشٍ لآثـارِ عذابِ قومِ لوطٍ ذَمٌّ وتـقـبـيـحٌ لعدمِ اتّعاظِهم

لَمّا كان من شأن قريشٍ أنّهم "مرّوا مِرارًا كثيرة في مَتاجِرِهم إلى الشّام على تلك القرية الّتي أُهلِكَتْ بالحجارة منَ السّماء"[1]؛ جاء التّعبير بفعل الرّؤية مُضارعًا للدّلالة على التّجدُّد والاستمرار، وفي ذلك ذَمٌّ وتقبيحٌ لهم؛ فإنّهم مع كثرة تَردادِهم لم يتّعظوا ممّا يُشاهِدون من آثار عذاب اللّه وتنكيلِه بالمُجرِمين، والتّعبير بفعل الرؤية يتجاوز معنى الرّؤية البصريّة إلى أن يتفكّروا ويَحْذروا أن يَنزلَ بهم ما نزل بقوم لوطٍ[2]، بمَدعاةِ ما كان منهم من تكذيبِ نبيِّهم، وارتكابِهِمُ الأفعالَ القبيحة الّتي اشتُهروا بها.

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾:

تَـحَـدّي قـريـشٍ للبعثِ والنّشورِ دلـيـلٌ عـلى كُفرِهم

قولُه تعالى: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ جُملةٌ مفصولة عمّا سبق من الجُمل[3]، وقد انتهى الكلامُ في الجُملة السّابقة إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا﴾، ثمّ فُصِلت هذه الجُملةُ عن سابقتها؛ لِما في معناها منَ الإضراب الانتقاليِّ، فهو تحوُّل من وصف تكذيبهم الرّسولَ ﷺ، وغفلتِهم وانتفاءِ اعتبارِهم بما حلَّ منَ الأُمم الّتي أهلكها الحقّ سبحانه إلى ذِكْر تكذيبِهم بالبعثِ[4].

معنى ﴿بَلْ﴾ ودلالتُها:

غـافـلـون عـنِ الاعتبارِ بالرّؤيةِ لـكُـفـرِهـم وتكذيبِهم بالدّارِ الآخرةِ

قولُه تعالى: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ يجوز أن تكون ﴿بَلْ﴾ دالّةً على الإضرابِ، انتقالًا من توبيخِهم وتقريعِهم على أنّهم لم يعتبروا ويتّعظوا إلى التّلميح إلى كُفرِهم بالبعثِ، والكنايةُ بنفي رجائِهم بعثًا بعد الموتِ[5] دلالةٌ على انتفاءِ رؤيتِهم لآثارِ العذابِ الواقعِ على أهلِ

(1) الزّمخشريُّ، الكشّاف: 3/ 281.
(2) ابن أبي زَمَنينَ، تفسير القرآن العزيز: 3/ 261.
(3) مكّيّ، الهداية: 8/ 5227.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 30.
(5) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 57.

القُرى منَ العقوبةِ والجزاءِ، وبيانُ أنّ عدمَ اتّعاظِهم إنّما هو بسببِ إنكارِهم لكَوْن ذلك عقوبةً لمعاصيهم[1]، ودلالةُ ﴿بَلْ﴾ على الإضرابِ على تقديرِ: بل رأوها؛ فإنّ تكذيبَهم وإنكارَهم ليس بسبب عدم رؤيتها، وانتفاءِ علمِهم بما حلّ بأهلها منَ العذاب والتّنكيل؛ بل بسبب تكذيبِهم بالدّار الآخِرة، كأنّهم مطبوعون عليه، مُسْتَقِرٌّ في جِبِلّاتهم[2].

معنى فعلِ الكونِ ماضيًا ﴿كَانُواْ﴾:

التّعبير بفعل الكون ماضيًا في انتفاء رجائِهم يومَ البعث والنّشور في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾؛ دلالةٌ على أنّ تكذيبَهم بيوم القيامة طبعٌ مُتأصِّلٌ فيهم[3]، وهم ثابتون عليه، بما يَبثّه الفعل الماضي من معنى التَّحقُّق والثُّبوت، ونفيُ التَّكوين أبلغُ من نفي الفعل.

تكذيبُهم بيومِ البعثِ طَبْعٌ مُتأصِّلٌ فيهم

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

التّعبيرُ بفعلِ الرّجاءِ منفيًّا في قوله تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾؛ للدّلالةِ على أنّهم لا يتوقّعون نُشورًا وعاقبةً، ولا يخافون عقابًا، أو لا يأمُلون نشورًا كما يأمُله المؤمنون الطّامعون في الوصول إلى ثوابِ الأعمال[4]؛ ولأنّه استقرّ في أنفسِهم اعتقادُهمُ التّكذيبَ بالآخرة، ورسخَ في قلوبهم إنكارُهم لليوم الآخِر، وتمادَوا في غيِّهم وضلالهم قرونًا طويلةً، حتّى تمكّن تمكُّنًا لا ينفعُ معه الاعتبارُ إلّا لِمَن شاء المولى سبحانه[5]، وانتفاءُ رجاءِ النّشور منهم هو الَّذي جَرَّأهم على التّكذيب، فهم لا يخافون بعثًا ولا نشورًا، والرّجاء ليس بمعنى الخوف؛ بل إنّهم كانوا لا يرجون ثوابَ عملِ الخير، وجزاءَ الصّالحات؛ فكان منهم أن اقترفوا المعاصي، وباشروا الموبِقات[6]،

دأبُهم أنّهم لا يأمُلون النّشورَ الموصِلَ للثّوابِ، ولا يخافون العقابَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 219 - 220.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 390.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 390.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 281.
(5) البقاعيّ، نَظْمُ الدّرر: 13/ 390.
(6) ابن الجَوْزيّ، زادُ المسير: 3/ 322.

واستُعملت صيغةُ المضارع الدّالَّةُ على التَّجدُّد والاستمرارِ؛ للإشارة إلى أنّ هذا دأبُهم في كلِّ وقتٍ وأوانٍ.

دلالةُ عدمِ التّصريحِ بإنكارِ البعثِ إلى إنكارِ رجائِهِ:

مُنكِرُ البعثِ لا يَرجو نفعًا ولا يَخشى ضرًّا

عبّر النّظمُ الجليل عن إنكار الكافرين للبعثِ والنّشور بانتفاءِ رجائه دونَ التّصريح به بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾؛ لأنّ مَن أنكرَ البعث فهو لا يرجو منه الفائدةَ والنّفع، ولا يخشى منه الضّرّ والأذى؛ فجاء التّعبيرُ عن إنكارِ البعثِ بأحدِ وجهَيِ الإنكارِ؛ تعريضًا بأنّهم ليسوا كالمؤمنين الّذين يرجون رحمتَه، ويخشَون عقابَه[1].

الغرضُ من تنكير ﴿نُشُورًا﴾:

تعظيمٌ لقدرتِهِ تعالى، وتوبيخٌ وتقريعٌ للمُنكِرين

أوردَ لفظُ النّشور نكرةً في قوله تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾؛ للدّلالة على التّعظيم؛ أيْ: عَظَمةِ اللّهِ وقدرته على إحياء الموتى وبَعْثِهم، وعدمُ تعريفِه يُضفي عليه هالةً منَ الرّهبة والعَظَمة، وفيه مزيدُ توبيخٍ للمنكرين؛ فإنّ إنكارَ الأمر العظيم وسْمٌ لمَن يُنكِره بالقُبح والشّناعة والشّنار.

بلاغةُ التّعبيرِ عن إنكارِ الجَزاءِ الأُخرويِّ بإنكارِ النّشورِ:

إنكارُ النّشورِ مُستلزِمٌ عندَهم إنكارَ الجزاءِ الأُخرويِّ

إنكارُهم للنّشور في قولِه تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ ليس على حقيقته؛ بل هو إنكارُ الجزاءِ الأُخرويّ، الّذي هو الغايةُ من خَلْق العالَمِ المُستَلْزِم للبعث والنّشور؛ فإنّ حالَهم حالُ مُنكرٍ للنّشور المُستتْبِعُ للجزاء يومَ القيامة، فهم لا يرون للنّفوس نشورًا أصلًا، ومَن كان هذا حالُه فبعيدٌ أن يعترفَ بالجزاء الدُّنيويّ لطائفةٍ كَفَرت، كما هو الحال في إهلاك قومِ لوطٍ، وقد بقيتْ آثارُهم دالَّةً على ذلك الجزاءِ الّذي أصابهم، عبرةً للمُعْتَبرين[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 31.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 220.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَطَر والغَيث:

الغَيث: هو "المطر الَّذي يُغيث منَ الجَدب وكان نافعًا في وقتِه، والمطَر: قد يكون نافعًا، وقد يكون ضارًّا في وقته، وفي غير وقته"[1].

المطرُ أعمُّ منَ الغيث، وقد يكون نافعًا أو ضارًّا، والغيثُ لا يكون إلّا نافعًا

ولمّا كان المطرُ مُحتمِلًا لأن يكون ضارًّا؛ فقد استُعير للعذاب؛ حيثُ شُبِّهت الحجارةُ بالمطر من حيث النّزول منَ السّماء، فالسّياقُ سياقُ عذابٍ، فلا يناسبُه التّعبيرُ عنه بالغيثِ المُستعمَل في الخيرِ والنّفعِ.

السَّوء والسّوء:

السّوء: بفتح السّين وضمِّها تدلُّ على المكروه والذّمّ[2]، المقابلِ للخير والإحسان، والفرق بينهما: أنّ ﴿ٱلسَّوۡءِۚ﴾ "بفتح السّين: الضّرُّ والعذاب، وأمّا بضَمّ السّين: فهو ما يَسوء، والفتحُ هو الأصل، وأمّا السّوء - بالضَّمّ - فهو اسمُ مصدر، فغلبَ استعمالُ المصدر في الَّذي يسوء بضرّ، واستعمال اسم المصدر في ضِدّ الإحسان"[3]، ولمّا كان استحقاقُ قُرَى لوطٍ الضّرَّ والعذابَ بسببِ فُجورِها وكفرِها وارتكابِها الفواحش، عبّر بلفظ ﴿ٱلسَّوۡءِۚ﴾ بفتح السّينِ ليدلَّ على شِدّةِ العذابِ الَّذي أصابهم.

السَّوءُ: الضّرُّ والعذابُ، والسّوءُ: ما يسوء، وهو ضِدُّ الإحسانِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 391.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 391.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 30.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»